

الفضاء الروائي في النقد الغربي والعربي

أ. د مسعودة لعريط *

جامعة مولود معمري ، تيزي وزو / الجزائر ، Messaouda.larit@ummto.dz

الإرسال: 01 / 2025/10 القبول: 15 / 2025/11 النشر: 26 / 2025/12

ملخص:

يتناول هذا البحث مفهوم "الفضاء الروائي" باعتباره من أبرز المفاهيم الحديثة في النقد السردى ، مميّزًا إياه عن "المكان" الذي يظلّ محددًا مادياً ، بينما يتجاوز الفضاء ذلك ليكون بنية سردية ودلالية.

الإشكالية الرئيسة تتمثل في الالتباس القائم بين مفهومي "الفضاء" و "المكان" في النقد العربي ، ومحاولة ضبط الفرق بينهما من خلال المقارنة بين الجذور الفلسفية واللغوية والتطبيقات الغربية والعربية.

يهدف البحث إلى تتبّع تطور مفهوم الفضاء من المعاجم والعلوم والفلسفة والفن ، وصولاً إلى التنظيرات الغربية (باشلار ، جنيت ، برنوف ، غولدنشتاين...) وكيفية تمثيل النقد العرب له (بحراوي ، لحميداني ، رشيد بن مالك) ...

خلصت النتائج إلى أنّ الفضاء الروائي عنصر جوهري يتقاطع مع الزمن ، الشخصيات ، والأحداث ، ويتخذ صوراً متعددة: واقعي/تخييلي ، مغلق/مفتوح ، دلالي/منظوري. كما أظهر البحث أن النقد الغربي قدّم أدوات دقيقة لتحليل الفضاء ، بينما لا يزال النقد العربي في مرحلة التأسيس متأثراً بالترجمة.

وأوصى بضرورة تثبيت ترجمة "ليو" بمكان و ترجمة "اسباس" بفضاء وتكثيف الدراسات التطبيقية العربية لترسيخ المفهوم وتطوير الدراسات النقدية حول الفضاء الروائي.

الكلمات المفتاحية: فضاء/ مكان/ ترجمة/ نقد/ روائي / مقارنة / تمثيل / صورة/ نص /

* المؤلف المرسل.

The Concept of Novelistic Space in Western and Arabic Literary Criticism

Abstract:

This paper explores the concept of narrative space, a central notion in modern criticism that differs fundamentally from place. While place refers to a limited geographical site, space functions as a narrative and semantic structure shaped by the writer's experience and expressed through language. The study adopts a descriptive-analytical approach to trace the evolution of the term from its linguistic, philosophical, and artistic origins to its theoretical elaboration in Western criticism (Bachelard, Genette, Bourneuf, Goldenstein) and its reception in Arab criticism (Bahrawi, Lahmidani, Ben Malek). Findings indicate that narrative space intersects with time, characters, and events, taking various forms such as realistic/imaginary or closed/open. Western criticism has offered rigorous analytic tools, while Arab criticism remains in its formative stage, often influenced by translation. The study concludes by recommending terminological precision (faḍā' for espace, makān for lieu) and more applied studies in the Arab context.

Keywords/ Space / Place / Translation / Criticism / Novelistic / Approach / Representation / Image / Text

I مقدمة:

يُعد مصطلح "فضاء" من المفاهيم الحديثة التي فرضت حضورها في الخطاب النقدي المعاصر، ولا سيما في الدراسات السردية، حيث انتقل من العلوم والفلسفة إلى الأدب عبر بوابة الشعر ثم الرواية. وقد ساهمت كتابات غاستون باشلار Gaston Bachelard، خاصة كتابه الشهير شعرة الفضاء في إرساء البعد الجمالي والرمزي لهذا المفهوم، قبل أن تضيف إليه السيميائيات أبعاداً جديدة نظرية وتطبيقية. غير أن هذا المفهوم غالباً ما يلتبس بمفهوم "المكان"، مع أن الفضاء يتجاوز من حيث البنية والدلالة.

فالمكان يدل على حيز جغرافي أو فيزيائي محدود ، في حين أن الفضاء يُفهم كبنية سردية ودلالية تنبثق من تجربة الذات الكاتبة وتمثل من خلال اللغة.

يهدف هذا البحث الوصفي التحليلي إلى توضيح هذا الفرق الحاسم بين معنى "مكان" ومعنى "فضاء"، ورصد تطور مفهوم "الفضاء الروائي" من الجذور اللغوية والفلسفية إلى النظريات النقدية العربية والرؤى والتمثيلات العربية له. فكيف تشكل مفهوم الفضاء الروائي في الفكر والفن و النقد الغربي، وماهي أهم المقاربات النقدية العربية له وكيف تم تمثيلها له؟

II. مفهوم كلمة "فضاء" في المعاجم الغربية والعربية:

1.2 كلمة فضاء في المعاجم الغربية:

ورد في معجم لورويبر Le Robert للغة الفرنسية أن « فضاء ، اسم مذكر استعمل في ق(12م) بصفة خاصة بمعنى الزمن ، واستمر ذلك إلى غاية القرن (16م) ويقابله باللاتينية: Spatum ، أما في لغة الفلسفة والعلم فهو محيط مثالي يتميز بظاهرية أجزائه ، حيث تكمن إدراكاتنا التي تتضمن في الأخير كل الامتدادات النهائية(...) وهو مقياس و رمز للزمن2». و نجد في دائرة المعارف الكبيرة أن « فضاء . زمن: هو محيط ذو أربعة أبعاد حيث أن البعد الرابع هو الزمن ، وهو أمر ضروري حسب النظرية النسبية لتحديد وضعية ظاهرة ما. وهذا يحيل إلى دلالات مختلفة تتمثل فيما يلي:

- 1- امتداد غير محدد يتضمن كل الأشياء.
- 2- امتداد الكون خارج المحيط الجوي للأرض ، مثل إطلاق صاروخ في الفضاء.
- 3- امتداد على السطح ، مثل فضاء صحراوي.
- 4- حجم يشغله شيء معين: هذا الأثاث يشغل بعض الفضاء.
- 5- مسافة بين نقطتين أو شيئين: ترك فضاء بين كلمتين Parex وفعل الفضاء: هو إبعاد الأشياء عن بعضها البعض في فضاء ما ، كوضع مسافة بين الأشجار ، و وضع فارق بين الزيارات3».

مما تقدم نصل إلى أن كلمة Espace ترتبط في المعاجم الفرنسية بالزمن كما أنها تحمل دلالات متعددة: الامتداد اللانهائي، الموضع الجغرافي، الحيز المشغول، أو البعد الرابع في الفيزياء.

لقد تطور معنى فضاء في الدرس اللغوي الغربي من المعنى الفيزيائي إلى التصورات الذهنية والمعرفية، فالفضاء في الفكر الغربي لا يُحصر في الموقع، بل في التجربة والتصور.

2.2 كلمة فضاء في المعاجم العربية:

وردت كلمة فضاء في لسان العرب بمعنى الحيز، حيث أن «فضاء/حيز والحيز هو مكان معلّم بحدود معينة، أي بمعنى ناحية من مكان، من فضاء:» قال عبيد بن حر: كنت مع أبي نظرة من الفسطاط إلى الإسكندرية في سفينة، فلما دفعنا من مرسانا أمر سفرته، فقربت ودعانا إلى الغذاء وذلك في رمضان، فقلت: ما تغيبت علينا منازلنا، فقال: أترغب عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم؟ فلم نزل مفطرين حتى بلغنا ماحوزنا: قال شمر في قوله ماحوزنا: هو موضعهم الذي أرادوه، وأهل الشام يسمون المكان الذي بينهم وبين العدو الذي فيه أساميتهم ومكاتبهم الماحوز وقال بعضهم: هو من قولك حزت الشيء إذا أحرزته، قال أبو منصور: لو كان منه لقليل محازنا أو محوزنا، وحزت الأرض إذا أعلمتها وأحييت حدودها (...) وحوز الدار وحيزها: ما انظم إليها من المرافق والمنافع. وكل ناحية على حدة حيز بتشديد الياء، واصله من الواو (...) وفي الحديث: فحمت حوزة الإسلام أي حدوده ونواحيه. وفلان مانع لحوزته أي لها في حيزه (...) قال السلف الفحل حمت حوزته أي لا يدنو فحل سواء منها: وأنشد الفراء:

حمت حوزا ته فتركن قفرا وأحمت ما يليه من الآجام

أراد بحوزته نواحيه من المراعي⁴ فالحيز إذا مكان معين بحدود واضحة.

ووردت كذلك في الصحاح⁵ وفي لسان العرب، بمعنى المكان الواسع من الأرض، حيث نجد أن: «فضا: الفضاء: المكان الواسع من الأرض والفعل فضا يفصو فضا فهو فاض، قال رؤية:

أفرخ فيض يبضها المتقاض عنكم، كراما بالمقام الفاضي

وقد فضا المكان وأفضى إذا اتسع ، وأفضى فلان إلى فلان ، أي وصل إليه وأوصله بمعنى أنه صار في فرجته وفضائه وحيزه ، قال ثعلب بن عبيد يصف نحلا:

ستت كثة الأدبار لا القر تتقي ولا الذئب تخشى ، وهي بالبلد المفضي

أي العراء الذي لا شيء فيه (...) والفضاء: الخالي الفارغ الواسع من الأرض وفي حديث معاذ في عذاب القبر: ضربة بهمضافة وسط رأسه حتى يفضي كل شيء منه أي يصير فضاء. والفضاء: الساحة وما اتسع من الأرض... وقال: الصحراء فضاء6.. وجاء أيضا أن « مكان في أصل تقدير الفعل مفعول لأنه موضع لكنونة الشيء فيه ، غير أنه لما كثر أجروه في التصريف مجرى فعال (...) قال ثعلب : يبطل أن يكون مكانا فعلا لأن العرب تقول: كن مكانك وقم مقعدك ، فقد دلّ هذا على أنه مصدر من كان أو موضع منه7 » حيث نلاحظ التباس معنى فضاء بمعنى الزمن. و يتردد هذا عند ابن فارس ، إذ يقول « الكاف والواو والنون أصل يدل على إخبار عن حدوث شيء ، إما في زمان ماضي أو زمان راهن ، يقولون: كان الشيء يكون كونا ، إذا وقع وحضر (...) وقال قوم: المكان اشتقاقه من كان يكون (...)8».

يفرز المعنى اللغوي لكلمة فضاء في اللغة العربية من خلال ما جاء في هذه القواميس ثلاث معاني:

- مكان محدد (حيز) بمعنى المكان المعلم بحدود معينة

- مكان واسع (البلد المفضي ، أو الصحراء)

- مكان أوسع إلى درجة الخلاء أو الفراغ أو الوجود الذي يتحقق بالضرورة في زمن ما ، حيث تتحقق الكينونة في موضع معين ، وحيث أن الزمن ركن أساسي لتحقيق الوجود. بهذا تدل كلمة "فضاء" في اللغة العربية على الاتساع والفراغ والانفتاح ، وغالبًا ما تقابل "المكان" الذي يدل على الحيز المحدد.

يختلف مفهوم فضاء عن مفهوم مكان لغويًا أيضًا في العربية ، مما يسمح بتكريس التمييز النقدي بين الفضاء (المجرد والرمزي) والمكان (المحدد والمادي) لكن الاستعمال النقدي العربي لم يستثمر هذا الفرق دائمًا بشكل دقيق.

III. الفضاء في الفلسفة والعلوم والفن

3.1 الفضاء الفلسفي والعلمي:

يتميز مصطلح فضاء بتعدد مفاهيمه في الحقل الفلسفي والعلمي ، بحسب التخصصات والتوجهات الفكرية في الحقبة الواحدة ، ومن عصر إلى عصر ؛ فالفضاء في الطرح الهندسي يختلف عنه في الفهم الفلسفي ، وهو في التخصص ذاته يختلف من مفكر إلى مفكر آخر ، ومن مرحلة إلى مرحلة أخرى. فإذا كان هنري بوان كاري H.POINCARÉ يقصد بالفضاء موضوع الهندسة ، أي الفضاء الهندسي L'espace géométrique المتميز بكونه مستمرا ومتجانسا ومتماثلا ، فإن ديكارت DESCARTES يجد أنه متلاحم مع الجسم المقيم فيه ، ويرى أن الفضاء والجسم المقيم فيه لا يختلفان إلا بحسب الرؤية والحساسية الخارجية وبحسب تفكيرنا. وسواء كان الامتداد من حيث الطول أو العرض أو العمق يشكل الفضاء ، فإن الأمر نفسه هو الذي يشكل الجسم. ولا يوجد اختلاف بينهما إلا فيما نسقطه نحن من امتداد خاص على الجسم. فمنذ ديكارت إلى بوانكاري ، تراوحت الرؤى الفلسفية بين النظر إلى الفضاء كبنية هندسية محضة أو كحيز يتفاعل مع الجسم والحواس.

إن رؤية ديكارت التفاعلية تجعل من الفضاء تجربة ، لا مجرد معطى خارجي ، وذلك ما يهيئ لتلقيه في الأدب كفضاء إدراكي وذاتي أكثر من كونه فضاء هندسياً.

3.2 الفضاء الفني التشكيلي التكعبي:

تقدم المدرسة التكعيبية Cubisme الفضاء على أنه نظام آخر منفلت من البعد الهندسي فتصنيف الشعر بطريقة معينة - مثلاً - يكفي ليبدل ملامح وجه مألوف. وقد تنعدم التغيرات الموضوعية غير أن تحويلها ما من حيث الزاوية أو من حيث مسافة المقاربة يحدثان تغييراً إلى درجة تجعلنا لا نتعرف عليه ، إذ يمكن للرسم أن يتجاوز حرفية الشكل بإعطائه وجوداً معيناً للموضوع ، عند ممارسته لعملية الرسم 10 فالفضاء بهذا الطرح لم يعد ذلك المحيط الذي يتكون من ثلاثة أبعاد يعيش ضمنها الإنسان. بل أصبح حدثاً يتحقق من خلاله الإنجاز التام ، حيث ينفلت من الأبعاد الفيزيائية ليسمح بأن يصنّف عملاً فنياً. وهذا ما يسعى إليه عمل كل مبدع.

لقد أدخل الفنانون التكعيبيون مثل بيكاسو بعداً جديداً على الفضاء عبر التعدد البصري والتكسير المنظوري. وبذلك فإن الفضاء هنا لم يعد محايداً أو واحداً، بل فضاء يتشكل بحسب الرؤية، ولعل هذا ما مهد لظهور الفضاء الروائي بوصفه بناءً متعدد الأبعاد.

IV. الفضاء الروائي في النقد الغربي

4.1 رولان برنوف وريال أيي Roland Bourneuf et Réal ouellet

يرى رولان برنوف وريال أيي في كتابهما عالم الرواية أن الروائي يعتمد دائماً إلى أن يمنح أدنى مؤشرات جغرافية، سواء كانت نقاط مرجعية بسيطة لإثارة خيال القارئ أو تنقيب منهجي، إذ لا مناص للروائي من خلق فضاء يتموقع ضمنه نصه السردى. ولا يمكن تصور رواية بدون مؤشرات جغرافية أو أماكن يندرج داخلها الحدث. وقد نجد في بعض الروايات أن الفضاء ينتظم بالجدية ذاتها التي تنتظم بها باقي العناصر السردية، يؤثر فيها ويقوي الأثر، كما يعبر عن مقاصد المؤلف، ففي رواية كاملة التناسق مثل رواية مدام بوفاري نجد أن الفضاء يقرر النقاط المصيرية للعقدة، وبالتالي فهو يتحكم في تركيبة السرد ومنحاه الدرامي. و بهذا الصدد يميز رولان برنوف وريال أيي مستويين من الفضاء: فضاء واقعي يدل على واقع معين وفضاء متخيل، بمعنى فضاء مبتكر ليس له مرجعية واقعية. وفي كلتا الحالتين يبدو الفضاء مسانداً للشخصيات ومندمجاً معها. وكذلك الشأن بالنسبة للحدث والضرورة الزمنية، حيث يشكل تداخله مع العناصر السردية الأخرى وضمنها وظيفة بالغة الأهمية. كما يتجلى الفضاء في أشكال مختلفة 11 مضافاً بذلك معاني متعددة على النص الروائي، إلى درجة أننا نجده في بعض الأحيان سبب وجود العمل الأدبي ككل.

إن الناقدان برنوف وأيي يريان أن الرواية تنتج فضاءً يتكامل فيه الحدث والشخصيات، وهما يُبَيِّنان بين الفضاء الواقعي والتخيلي. وإن هذا التداخل البنيوي للفضاء في النص لا تنحصر أهميته فقط في الوظيفة السردية فقط بل يعطيه دوراً فاعلاً في توجيه التلقي.

4.2 جون وسجربر Jean WEISGERBER

أما جون وسجربر فيعتبر أن الفضاء الروائي فضاء يعيشه الإنسان بجسده وروحه ، وهو فضاء مجاور للفضاءات التي يقدمها الرسام والنحات والتي تستدعي دراسة القساوسة وعلماء الاجتماع ، واللغويين والجغرافيين وعلماء النفس وعلماء الأديان .

يؤكد جون وسجربر على أن الفضاء الروائي لا يمكن أن ينجز إلا على مستوى اللغة مثل باقي المكونات السردية الأخرى ، إذ هو فضاء لفظي بالتحديد ، ولهذا يتميز عن الفضاءات الخاصة بالسينما والمسرح – على سبيل المثال – فهذه الأخيرة تدرك عن طريق العين والأذن مباشرة ، بينما يستحضر الفضاء الروائي عن طريق الكلمات المطبوعة ليتشكل موضوعاً للفكر . و بما أنه يتكون من الكلمات فإنه يشمل كل المشاعر والمفاهيم الفضائية التي يمكن للغة أن تعبر عنها . و في ذات السياق ، نجده ينفي أي وجود مسبق للفضاء ، حيث يقول: « لا يوجد فضاء معطى حقيقة بل يتعين علينا إنتاجه نحن بأنفسنا . إذ ليس الفضاء إلا انعكاساً وتجربة فردية 12 ».

و هو ما يعني أن الفضاء عنده يتميز بطابع لغوي خالص ، حيث يتكون من الكلمات باعتبارها علامات لغوية ، الأمر الذي يجعله يختلف عن الفضاء في حقول أخرى كالرياضيات ، والفيزياء الحديثة ، والفن التشكيلي ، والسينما ، باعتبارها تقدم صوراً محسوسة ، تستوعب أنياً . وهو ما يعني كذلك أن لكل منا فضاءه الخاص ، الذي ينجزه عبر الكتابة أو القراءة كتجربة فردية . فالفضاء إذاً حسب جون وسجربر يُنتج لغوياً عبر التخيل والتجربة الذاتية للكاتب .

إن الفضاء إذاً ليس معطى جاهزاً ، بل إنه ينبني داخل النص وفق رؤية المؤلف ووعيه .

4.3 غولدنشتاين Jean Pierre

يؤكد غولدنشتاين على أن: الفضاء الروائي يتجاوز بكثير الإشارة البسيطة لمكان ما فهو نظام داخل النص ولا تنحصر وظيفته في التمثيل الصادق لخارج النص . ويجب أن نكون قادرين على أن نعطي للفضاء النصي وجوداً مختلفاً عن الفضاء المرجعي ، الذي يبدو للوهلة الأولى مجرد نقل بسيط ، وهو يرى أن كل رواية تحمل طوبوغرافيا خاصة بها ، تمنحها إيقاعها الخاص . ولعل ذلك ما جعله يطرح ثلاثة أسئلة كخطوات منهجية لدراسة الفضاء الروائي: أين ؟ كيف ؟ لماذا ؟ معتبراً إياه طوبوغرافيا دلالية تساهم في بناء الشخصيات والحبكة . و في إجابته على السؤال الأول ، ينبه إلى أن الحدث الروائي ، قد يجري في مكان واحد ، و لكنه مع

ذلك يستمر في جهات مختلفة، أو يتفرع إلى كل الأفاق. فالتفضية تقدم درجات انفتاح مختلفة. نجد بهذا الصدد فضاءً محدوداً وفضاءً مغلقاً. وهذا الأخير قد يصير فضاءً خانقاً عندما لا يخترق الحدث والشخص حدود إطار محدد آنيا، كالغرفة المغلقة، في رواية الأطفال الفظيعين للكاتب جون كوكتو. والجزيرة الخالية، التي تشهد ظهور مجتمع قاس من الأطفال في رواية صاحب الجلالة للذباب للكاتب وليام غولدين ووهران المدينة المقطوعة عن العالم في رواية الطاعون لألبير كامو. أو الممرات المتاهية للمغارة المزارة من قبل الأربعة جنود وفي رواية كانوا أربعة لهنري بولاي. غير أن العديد من الروايات تستخدم الفضاء المفتوح لتترك حرية الذهاب والإياب وحرية السفر للأبطال، إلى درجة التسكع، حيث نعاين في درجة قصوى من الانفتاح فضاءً متشظية، كما يجسد ذلك مثال البحارة الذين لا يضعون حداً لشهيتهم للمغامرات.

كما يشير غولدنشتاين إلى أنه حتى في حالة سريان الحدث الروائي في مجال مغلق vase clos فإنه يمكن أن نلتقي بفتحة متدرجة عن طريق فضاء متخيل. وبالتالي نجد في الرواية "الهنا" «Ici» و "الهناك" «Ailleurs». فأما "الهنا"، فهو المكان المحدد الذي يبقى فيه الروائي الشخصية. غير أن هذه الأخيرة لا تكتفي بالانخراط الفيزيائي في واقع فضاء روائي، حيث يجري وجودها ككائن ورقي، بل نجدها تحلم بأفاق مغايرة، وتختل ذاتها في أحوال أخرى. ومن ثم ينبثق فضاءً ملحقاً، أو "الهناك"، الذي ينضد إطار الحدث. فإذاً مهما بدا الفضاء مغلقاً فإنه يمكن أن نعثر على فتحات ونقاط تتجاوز "الهنا"، عبر فضاء متخيل، يمثل فضاء "الهناك".

إنّ الفضاء قد يبدي درجات مختلفة من الانفتاح: (محدوداً، ومغلقاً وخانقاً)، وقد يحيل ذلك إلى فضاءات واقعية أو خيالية. وفي كلّ هذه الحالات يتأسس الفضاء أو الجغرافية الروائية على تقنيات سردية تؤدي وظائف محددة. و من أجل أن يجيب على سؤاله الثاني، المتمثل في تقديم الفضاء؛ يبين غولدنشتاين أنه على الكاتب إذا أراد أن يبرز الفضاء الذي تنمو وتتطور فيه شخصياته أن يعتمد إلى تقنية الوصف. ذلك أن الفضاء الروائي في نظره مجرد فضاء لفظي Espace verbal وهذه الظاهرة مسجلة بانتظام في كل كتابة ومأخوذة من الصراع الموجود بين تزامنية الرؤية و تتابعية الكتابة، والتي تدور أيضاً حسب خطية غير قابلة للإحاطة. الأمر الذي يعني أن الفضاء يتفتق ويتطور من خلال تقنية الوصف، حسب خطية

تنقلت من حدود التأطير والإلهام. غير أنه ينبغي التوضيح أنه ليس لزاماً أن يتم اللجوء إلى وصف تفصيلي للفضاء لكي يثري تقنيات السرد، إذ لا تكمن الأهمية في الطبيعة الجغرافية للفضاء، إنما في وظيفتها البلاغية *rhétorique*، حيث يمنح الفضاء للروائي وسائل لتنويع نماذج تقديم السرد.

ويخلص جون بيير غولدنشتاين في الأخير إلى أن الفضاء ليس فقط حصيلة أماكن موصوفة، كما أنه ليس ضرباً من التجميل المجاني الذي يراد به إضافة لمسة أناقة ضرورية لاستكمال ديكور التخيل *fiction*، فتقديم الفضاء يرتبط ارتباطاً حميماً بعملية اشتغال العمل الروائي¹³. بهذا الطرح الذي ينسجم مع الرؤية السابقة لرولان برنوف وأي يهتم غولدنشتاين إجابته على السؤال الثالث المتعلق بأسباب اختيار تقديم الفضاء بكيفية دون أخرى.

بناءً على هذا، فإنه لا وجود لفضاء مغلق تماماً؛ إذ لا بد من فتحة ما تخترق انغلاقه و تسمح بتجاوز حدود المكان، الذي قد يكون غرفة أو سجناً أو علبة صغيرة أو قرية أو جزيرة. وإن الفضاء الروائي لا يتلخص في وصف مجموعة أماكن، بل إنه عنصر شديد التشابك بالعناصر السردية الأخرى، الأمر الذي يجعل وظيفته تتداخل مع وظائف هذه العناصر. ومن ثمة فإن اختيار كيفية أو أخرى لعرضه تؤثر حتماً في كيفية اشتغال نظام النص بكامله. كما أن اكتشاف سبب تغير الأماكن فيه كفيل بجعلنا نعي إلى أية درجة يعدّ ذلك مهماً من أجل ضمان وحدة السرد وحركته.

تمنح هذه الرؤية التي يقدمها غولدنشتاين أدوات وآليات نقدية محسوسة لتفكيك أثر الفضاء في الرواية و تساعد في تحديد تمفصلاتها السردية.

4.4 ميشال بيتور وجيرار جنيت G. GENETTE / M. BUTOUR

يقدم ميشال بيتور¹⁴ رؤية مكملّة لما سبق ذكره، حيث يلاحظ أن الفضاء الروائي لا يشمل فقط الإطار الجغرافي أين يدور الحدث ولكن أيضاً الأشياء التي تصاحبه، يضاف إليها كل حركة ذات ترتيب فضائي، فالأثاث والأشياء وتنقلات الشخص، كل ذلك ينبغي أخذه بعين الاعتبار. أما جيرار جنيت¹⁴ فإنه يعرض الفضاء على أنه صورة مجازية تحمل أبعاداً دلالية، حيث يتحدث عن فضاء دلالي يتأسس بين المدلول المجازي والمدلول الحقيقي إذ

يمكن لكلمة واحدة مثلاً أن تحمل معنيين. تقول البلاغة عن أحدهما بأنه حقيقي، وعن الآخر بأنه مجازي، كما أنه ينظر إلى الفضاء على أنه صورة، والصورة هي في الوقت نفسه الشكل الذي يتخذه الفضاء، فبينما يرى بيتور الفضاء حاوياً للأشياء والحركات، يصنفه جنيت كصورة سردية دالة.

إن هذه الرؤى النقدية المتعددة توسع الفضاء من حيز جغرافي إلى رمز سردي يضمهر معاني ومواقف أيديولوجية.

7. الفضاء الروائي في النقد العربي

5.1 إشكالية ترجمة المصطلح

ورد مصطلح "فضاء" عند حسن بحراوي 15 وحמיד لحميداني 16 ورشيد بن مالك 17 مقابل لمصطلح Espace في اللغة الفرنسية. بينما عمد بعض الدارسين إلى استعمال كلمة "مكان" مثلما نجد عند غالب هلسا الذي ترجم كتاب La poétique de l'espace لغاستون باشلار بجماليات المكان 18. ما يعني أنه إعتد كلمة espace الفرنسية، كمقابل لكلمة مكان في اللغة العربية.

من المعلوم أن لفظ مكان في اللغة العربية يقابله لفظ Lieu في قواميس اللغة الفرنسية، و هو بالتالي ليس مرادفاً لكلمة espace كما وردت في القواميس الفرنسية، ولا كمصطلح شعري عند باشلار بحكم الدلالات العميقة التي اسقطها عليه في تحليلاته ورؤاه النقدية والشعرية. لكننا نجد أن معنى مكان متضمن في معنى فضاء، ونقصد بهذا أن الفضاء أكبر من المكان وأشمل منه، بل إنه ينطوي عليه ويمتلاً به. وإذا كان المكان ينحصر في الإحالة على البعد الجغرافي الحسي، فإن الفضاء يحيل إلى ما هو أبعد من ذلك، ليلامس التخيلي والذهني، أي الصور والقيم الرمزية.

إن استخدام بعض النقاد العرب مصطلح "فضاء" كمقابل ل'Espace واستخدام آخرون "مكان" للدلالة عليه، سبب لبساً نقدياً. وفي رأينا ينبغي تثبيت ترجمة Espace بفضاء و Lieu بمكان، مع التأكيد على أن الفضاء بنية حاملة للدلالة والتخيل، في حين يبقى المكان عنصراً جغرافياً محايداً نسبياً.

5.2 الفضاء الروائي عند حسن بحراوي

لقد تأخرت مقارنة الفضاء الأدبي و الروائي عند العرب إلى غاية بداية الثمانينات ، إذ جاءت كنتيجة للترجمة والتأثر بالفهم النقدي الغربي له ، ويمكن أن نعاين هذا التأثير على سبيل المثال من خلال كتاب: بنية الشكل الروائي 19 لحسن بحراوي ، حيث ينبثق فهمه له من التنظيرات والتطبيقات الغربية.

عمد حسن بحراوي في دراسته التطبيقية بصفة خاصة إلى استعمال مفهوم التقاطب كإجراء عملي أثناء التطبيق والتحليل. وفي السياق نشير إلى أن مفهوم التقاطب يعود إلى غاستون باشلار و هنري ميتران ويوري لوتمان وأوسبنسكي و وسجرب. وقد اختار حسن بحراوي هذا الإجراء لما يتسم به من الوضوح ، و نظراً لقدرته على منح أدوات مفهومية وإجرائية لدراسة الفضاء الروائي.

يعدّ الفضاء عند حسن بحراوي بنية تتوزع عبرها الأمكنة ، وهو يعتمد مفهوم "التقاطب" لتحليل التوترات بين فضاءات الرواية كأداة فعالة لتفكيك ثنائيات مثل (الداخل/الخارج ، المدينة/الريف) مما يعمّق فهم البنية السردية.

5.3 حميد لحميداني

يعرف حميد لحميداني الفضاء الروائي بقوله: «إن الفضاء في الرواية أوسع ، وأشمل من المكان ، إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في سيرورة الحكى ، سواء تلك التي تم تصويرها بشكل مباشر ، أو تلك التي تدرك بالضرورة ، وبطريقة ضمنية مع كل حركة حكاية. ثم إن الخط التطوري الزمني ضروري لإدراك فضائية الرواية بخلاف المكان المحدد فإدراكه ليس مشروطاً بالسيرورة الزمنية للقصة 20». ويرصد في هذا السياق أربعة أنواع 21 للفضاء:

1 - الفضاء الجغرافي L'espace géographique

يقدم الروائي في هذا النوع من الفضاء حدًا أدنى من الإشارات الجغرافية تكون مجرد نقطة انطلاق لتحريك خيال القارئ ، أو من أجل استكشاف منهجية للأماكن. و يكون الفضاء

بهذا المعنى معادلاً لمفهوم المكان ، وقد يحيلنا هذا بصفة خاصة إلى طروحات رولاند برنوف وريال أيي وهنري ميتران.

2 - الفضاء النصي L'espace textuel

يؤدي الفضاء النصي معنى الحيز الذي تشغله الكتابة بوصفها أحرفاً طباعية على مساحة من الورق. ويدخل في هذا المجال تشكيل الغلاف ووضع العبارات الافتتاحية وأنواع الكتابة الأفقية والعمودية والبياض ، وذلك كما ورد عند ميشال بيتور.

3 -الفضاء الدلالي L'espace sémantique

يعني الفضاء الدلالي الصورة التي تلحقها لغة الحكي ، وما يترتب عنها من دلالة مجازية.

4 - الفضاء كمنظور L'espace comme perspective وهو الطرح الذي جاءت به جوليا كرسيفا (Kristeva Julia) ، في كتابها نص الرواية و يعني زاوية النظر أو وجهة نظر الكاتب التي يتحكم من خلالها في عالمه الروائي بتقديمه الفضاء في كفاءات معينة.

إستلهم لحميداني تصنيف الفضاء إلى أربعة أنواع: الجغرافي ، النصي ، الدلالي ، المنظوري. وهذا التصنيف يساعد على الإحاطة بتجليات الفضاء داخل الرواية سواء كحيز ، أو كأداة بناء ، أو كمنظور سردي.

VI. خاتمة

يختلف مفهوم فضاء عن مفهوم مكان لغويا ، ما يسمح بتكريس التمييز النقدي بين الفضاء (المجرد والرمزي) والمكان (المحدد والمادي) لكن الاستعمال النقدي العربي لم يستثمر هذا الفرق دائماً بشكل دقيق.

إن التمييز بين الفضاء والمكان ضرورة منهجية لفهم الرواية بوصفها خطاباً مركباً تتشابك فيه اللغة والتخييل و البنية.

لقد أضافت الفلسفة لمفهوم الفضاء بعداً جديداً من خلال رؤية ديكاوت التفاعلية تجعل من الفضاء تجربة ، لا مجرد معطى خارجي ، ما هياً لتلقيه في الأدب كفضاء إدراكي وذاتي أكثر

من كونه فضاء هندسيًا. وبفضل المدرسة التشكيلية التكميلية لم يعد الفضاء محايدًا أو واحدًا ، بل فضاء يتشكل بحسب الرؤية.

أما في النقد الغربي فإن الفضاء عنصر سردي يتداخل مع الحدث والشخصيات ، وهو لا يشمل فقط الإطار الجغرافي أين يدور الحدث ولكن أيضا الأشياء التي تصاحبه ، يضاف إليها كل حركة ذات ترتيب فضائي ، كالأثاث والأشياء والحركة. وهو كذلك صورة مجازية تحمل أبعاداً دلالية. والفضاء في النقد الروائي الغربي فضاءات: فضاء واقعي / فضاء تخيلي ، فضاء الهنا / فضاء هناك / فضاء مغلق / فضاء مفتوح / فضاء متدرج وفضاء متشظي...

وهي طروحات تمنح أدوات وآليات نقدية محسوسة لتفكيك أثر الفضاء في الرواية و تساعد في تحديد تمفصلاتها السردية.

وبهذا طوّر النقد الغربي أدوات دقيقة لتحليل الفضاء كبنية سردية ودلالية ، بينما لا تزال المقاربات العربية في مراحل التأسيس. وقد اعتمد جل النقاد والباحثين العرب في تمثيلهم لمصطلح الفضاء الروائي على ما قدمه النقد الغربي من طروحات وتنظيرات مختلفة في هذا الحقل.

وعليه ندعو إلى تعزيز استعمال مصطلح "فضاء" كمقابل لـ "Espace" ، والعمل على تطوير قراءات تطبيقية لنصوص سردية عربية من أجل تجذير المفهوم وتفعيله في الحقل النقدي العربي.

الهوامش:

1-Gaston Bachelard, La poétique de l'espace, 8e édition, Quadriga, PUF, Paris, 2001

2 -Le Robert alphabétique et analogique de la langue française, Le Robert, Paris, 1977, p 625.

3 -La Grande encyclopédie, -EOL-FAN-, H.LAMIRAUT. Cie, Paris, p 302, 303.

4 -ابن منظور ، لسان العرب ، مادة فضا ، م 15 ، ع 15 ، و-ي ، ط 1 ، دار صادر ، بيروت ، 1994 ، ص 157

5- الجوهري ، الصحاح ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، مادة فضا ، ج 6، دار العالم للملايين ، بيروت ، ص 245.

6-ابن منظور ، لسان العرب ، مادة فضا ، م 15 ، ع 15 ، ص 441 ، 6442

- 7 - ابن منظور ، لسان العرب ، ج 13 ، ص 484
- 8 - ابن فارس ، مقاييس اللغة ، تح: عبد السلام محمد هارون ، مادة كون ، دار الفكر ، بيروت ، 1979 ، ص 148.
- 9 - Le Robert alphabétique et analogique de la langue française, p625/626
- 10 - Encycloaedia.universalis, Corpus 7, Eocambrien, p170
- 11- Roland Bourneuf et Réal Ouellet, L'univers du roman, P.U.F, Paris, 1972, pp 7/107.
- 12- Jean Weisgerber, L'espace Romanesque, L'Âge d'homme, Lausanne, 1978, pp 10/ 12.
- 13 - Jean Pierre Goldenstein, pour lire le roman ,Du culot, Bruxelles, 1985, pp88/101
- 14 - Michel Butor, L'espace romanesque, dans Essai sur le roman, Gallimard, Paris, 1965, p 49
- 15 - Genette, Figures II,Le Seuil, Paris, 1976. p47
- 16 - حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ، ط 1 ، بيروت ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، 1990 ، ص 55.95
- 17- حميد لحميداني ، بنية النص السردى ، ط 2 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، 1993 ، ص 63.64
- 18- رشيد بن مالك ، "سيمائية الفضاء في رواية ربح الجنوب" ، مجلة دراسات نقدية في أدب عبد الحميد بن هذوقة ، ع 4 / 3 ، مديرية الثقافة لولاية برج بوعريج ، الجزائر ، 1998 ، ص 77
- 19 - غاستون باشلار ، جماليات المكان ، تر: غالب هلسا ، ط 5 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، 2000.
- 20 - حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ، ص 55
- 21- حميد لحميداني ، بنية النص السردى ، ص 64

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- ابن منظور ، لسان العرب ، مادة فضا ، م 15 ، ع 15 ، و-ي ، ط 1 ، دار صادر ، بيروت ، 1994
- 2- ابن فارس ، مقاييس اللغة ، تح: عبد السلام محمد هارون ، مادة كون ، دار الفكر ، بيروت ، 1979
- 3- الجوهري ، الصحاح ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، مادة فضا ، ج 6 ، دار العالم للملايين ، بيروت.
- 4- حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ، ط 1 ، بيروت ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، 1990
- 5- حميد لحميداني ، بنية النص السردى ، ط 2 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، 1993
- 6- رشيد بن مالك ، "سيمائية القضاء في رواية ربح الجنوب" ، مجلة دراسات نقدية في أدب عبد الحميد بن هدوقة ، ع 4 / 3 ، مديرية الثقافة لولاية برج بوعريج ، الجزائر ، 1998
- 7 - غاستون باشلار ، جماليات المكان ، تر: غالب هلسا ، ط 5 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ، 2000.

8- Encyclopaedia.universalis, Corpus 7, Eocambrien

9-Le Robert alphabétique et analogique de la langue française

10- Genette, Figures II, Le Seuil, Paris, 1976.

11- Jean Pierre Goldenstein, pour lire le roman, Du culot, Bruxelles, 1985,

12-Jean Weisgerber, L'espace Romanesque, L'Âge d'homme, Lausanne, 1978

13- Michel Butor, L'espace romanque, dans Essai sur le roman, Gallimard, Paris, 1965

14- Roland Bourneuf et Réal Ouellet, L'univers du roman, P.U.F, Paris, 1972